الصحراء والعيون الخزينة

قصة قصيرة

زياد علي

- ١ -

كان ذلك في شهر يوليو تقريباً... وبالتحديد الأيام الأخيرة منه.. عيناك تتابعان طفلة صغيرة اندفعت تجري من والدتها ناحية حمامة ظلت تفرد جناحها الأيسر في وجه السماء كشراع مركب مستمتعة بحبات المطر المتساقطة.

أرجل المارة تنعكس على الاسفلت المغسول فيبدو لكل شخص امتداد آخر.

عيناك تنشدّان متفحّصتين الممرات التي تندفع فيها الرؤوس من فتحة «الاندر جراوند».

الطفلة الجميلة بتنورتها المزركشة تبهجك أنها في سياق مع الحمامة..... كنت تتمنى لو كان في (بترقال سكوير) حمامة واحدة بيضاء..

- ٢ -

عندما رفعت رأسك إلى السحب اصطدمت نظراتك بتمثال ذلك الضابط البحري الذي قاد هجوماً على الهند ومات في إحدى المعارك.

قبعته تذكرك بفلم ليلة البارحة.. إنها من النوع الذي يرتديه القراصنة. يده تمسك سيفاً.. كان في شكله العام رجلاً شرساً، وكنت تبحلق فيه فيما يقفز السؤال على شفتيك.

- لماذا لا توحي بالسلام.؟

كنت تريد أن تخرج له لسانك هازئاً.

- ان حمامة واحدة لن تحط بجانبك سيدي الجنرال.

أنت تعرف أن شيئاً ما في تكوينك يخيف الحمام ولكنه يتجاهل ما تقوله.... وهذا ما يدفعك إلى أن تشمت به.

- جميل أن تنصب في أعلى المسلة المغروسة في الميدان.

انك محطة استراحة غير مضمونة.

المطر يتساقط في دفعات خفيفة... ووجه الشمس يبتسم في بعض المرات.

هل كنت تتوقع مثل هذه النهاية سيدي؟

وهل تبقى لك شيء لم تقامر به.

- ٣ -

عقارب الساعة تنهش تفكيرك مع كل خطوة تبتعد فيها عن السادسة.

- سوف تحضر بعد دقائق.. هذا ما تحدثك نفسك به وستكون ابتسامتها هديتها المعتادة.

سوف تنظر إلى الأرض بمجرد أن تقع عيناها عليك حتى تجهض رغبتها في أن تجري باقصى سرعة.. ومع كل خطوة تبدو ابتسامتها أكثر إشراقاً. وستسرع في خطواتها عندما تصبح قريبة منك.

وتفتح لك ذراعيها.. سوف ترتمي في حضنك وستقبلها بلهفة.

ستقول لك إن المسافة من «ريدنج إلى لندن» أخذت منى وقتاً طويلاً....

وعندما تلاحظ أخيراً أنك مبتل ستعاتبك بمصادرة ابتسامتها.. ستقول إننا لا يجب أن نتصدق بما معنا من نقود على الاطباء، وتبادلها أنت الآخر الابتسامة وتقفز كلماتك مزغردة. عندما يكون أمام المرء طريق واحد فهو مجبر على اختياره.. إذا كان لا يريد الوقوف.

- ٤ -

ارتفعت يدها إلى وجهك... سقطت دمعتها على خدها.. عندما رفعت نظرك إلى الشرطي الواقف قريباً منكما رد عليك بابتسامة.

كانت هذه أول مرة تحس فيها أن هذا الشخص ليس عدوك.. وانك تستطيع أن تبادله الود، كان يضحك فيما ظلت تمسك عنقك بيدها وتضرب بالأخرى حبيبات المطر المعششة على رأسك.

وفيما كنت تمسك أصابعها وتقفزان كطفلين ناحية الحديقة الخضراء كان الحمام يسرع في خطواته من أمامكما مفسحاً الطريق.

كانت السعادة التي بداخلك أكبر من أن تعرف مصدرها... وعندما وقفتما أمام بائعة الفاكهة لشراء رطل من الفراولة كانت هي الأخرى تبتسم وتنظر إليكما بفضول.

كنت تريد أن تقول لها: «صدقيني سيدتي أنني عشت ربع قرن في مدينة لم أشعر أن واحداً فيها يبادلني الحب».

كانت هي في تلك اللحظة تنتقي برتقالتين... وكنت تكره هذا النوع الأصفر (جريب فروت) ولكنها كانت مصرة على أن تحافظ على رشاقتها.. أو بشكل آخر... لا تريد أن تبذرا نقودكما.

- ٥ -

افترشت الأرض، وضعت الفراولة بجانبها وفيما أخرجت من الكيس الوحيد الذي تملكانه سكيناً لتنزع عن البرتقالة «قشرتها» كنت تسرع برأسك لتضعه على الأرض متمدداً على العشب المندى.

عندما يمنحك الرب فتاة من بلادك تحبك وتحنو عليك وتجد شرطياً يقف قريباً منكما يحمل بدل النظرات النارية والوجه المتخشب ابتسامة رقيقة مثل وريقات زهرة اللوز - عندما تعيش كل ذلك بدون تقسيط - .. وتجد أن اغفاءة صغيرة تجعل أفكارك تجتاز الحدود دون جواز سفر.. فحذار أن تنام.

٦ -

في منطقة الصحراء لا تحكي للناس عن الأنهار التي تجري في بقية مدن العالم - فاما أن تحزنهم واما أنهم لا يصدقونك.

لندن